المدينة... في الرواية العربية.. كيف؟ ولماذا؟

القاهرة/الثورة **تحقيق/مصطفى كمال عفيفي**

ارتبطت الرواية منذ نشأتها ارتباطاً وثيقاً بالمكان والمدينة فرع منه، ومن الملاحظ أن الدراسات النقدية المتصلة بالمكان الروائي محدودة للغاية، كما أن المكان غالباً ماكان يقتصر على كونه إطاراً عاماً للأحداث..

وقد جاء الاهتمام بالمكان الروائي- في جانب منه- صدى للتأثر بالرواية الجديدة الأوروبية التي أولت المكان اهتماماً بالغاً انعكس بصورة تلقائية على الدراسات النقدية.

وتتنوع صور المدينة في الرواية العربية فقد تكون مجرد إطار عام للحدث وقد توضع المدينة في مواجهة القرية لإدراك مدى التناقض الصارخ بين البيئتين كما قد تقف المدينة العربية في مواجهة المدينة الغربية شأن العديد من روايات الترجمة الذاتية...

وليس من شك في أن صورة المدينة في الرواية لن تتطابق بأي حال مع الأبعاد الجغرافية للمدينة لأن الروائي يضفي على المكان ألواناً نفسية تعطيه صورة أخرى أجمل وأبهى من الواقع المحسوس.

تقاطع الزمان والمكان

● وعن تقاطع الزمان والمكان في رواية المدينة يقول الروائي جمال شحيد:

- إن المدينة تحتل في الرواية العربية مكانة أساسية انطلاقاً من روايات عصر النهضة كحديث عيسى بن هشام للمويلحي مثلاً وحتى أيامنا «الضغينة والهوى» لفؤاد حداد والأمثلة كثيرة لاسيما وأن الروائيين بشكل عام اكتووا بنار المدينة وخبروا أبعاد المكان المدني وجماليته وعاش معظمهم في العواصم والمدن حتى ولو لم تكن أصولهم مدنية، ذلك أن المدينة منذ غابر العصور ارتبطت بفضاء المدينة وأن العصر الذهبي لأغلب المدنيات تواشج مع المدن والحواضر، ومع أن المدينة الحديثة تدمر الإنسان المعاصر وتخلق لديه الرعب والمساواة والغربة إلا أنها تبقى على سلبيتها قيمة ثابتة.

وقد وعت الرواية العربية منذ نشأتها المكان المتميز المتمثل بالمدينة ونظرت إليه من زوايا متعددة وصورته صوراً متباينة، فأتت الرواية العربية انعكاساً لواقع المدينة وتداعياتها وتبدلاتها فتعددت التجارب الروائية المرتبطة بالمدينة.

فهذا ينظر إليها مقارناً بين مدينته ومدينة أخرى «حديث عيسى بن هشام» وهذا يحس بها دون أن يراها لأنه أعمى « الأيام» لطه حسين، وهذا ينظر اليها كأنها ساحة للصراع والتصور«الثلاثية» لنجيب محفوظ أو كأنها تمثل القداسة والمروق «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي أو تكشف حيزاً جنسياً متميزاً «موسم الهجرة الى الشمال» للطيب صالح أو أن المدينة مكان للهروب والموت «ميرامار» لنجيب محفوظ.. وتعددت أشكال المدن وتباينت وتناقضت فهذا الكاتب يقدم لنا مدينة زئبقية لايستطيع البطل الإمساك بها «البحث عن وليد مسعود» لجبرا ابراهيم جبرا أو مدينة الذاكرة المفجوعة «عاد إلى حيفا» لغسان كنفاني أو المدينة المومس «طواحين بيروت» لتوفيق عواد أو المدينة الرجيمة «الخبز الحافي» لمحمد شكري أو مدينة الطفولة والصبا والأم الرؤوم «يابنات اسكندرية» لادوار الخراط.

«الروائي/جمال شحيد»: الرواية العربية وعت منذ نشأتها أهمية المكان فجعلته انعكاساً لواقع المدينة وتداعياتها وتبدلاتها

ولكن البُعد المكاني للمدينة لايتبلور إلا اذا تقاطع مع البعد الزماني فالمكان بنية ثابتة لايصبح متحركاً إلا بالزمان، وهناك زمنان في المطلق: الزمن الآلي الساعي المتكرر والزمن البشري الذي يرصد تفاعل الإنسان مع الوقت، وتعير الرواية إهتماماً خاصاً بتواشج المكان والزمان لأنه هو الذي يعطي شخوص الرواية حيويتهم وحركيتهم وأبعادهم، والمكان بنية كبرى يحركها الزمن ويبث فيها نبع الحياة، المكان قيمة ثابتة لاتتطور إلا مع الزمان وعبره، فالمكان المأهول يصبح بالضرورة مكاناً حركياً وتاريخياً وإنسانياً بالتالي والزمن المطلق هو زمن ساكت وثابت ولايصبح متحركاً إلا عندما يلامس الحيز المادي فيتحول عندئذ إلى زمن إنساني يتعاقب مع حركة الفصول ومراحل العمر ومفاصل التاريخ، فالزمكانية في الرواية العربية قيمة كبرى ومفتاح ذهبي لفهم الرواية وبها ينتقل المكان من الجغرافية الى التاريخ والى صدور الناس.

رباعية بحري

● أما الروائي محمد جبريل فقد كتب رائعته رباعية بحري بأجزائها أبو العباس، ياقوت العرش، البوصيري وعلي تمراز وعنها يقول:

- بداية أنا لم أكتب عن البحر ولا عن الصلة بين البحر و اليابسة وهو مابين في الكثير من إبداعاتي الروائية والقصصية، لم أكتب لطرافة الموضوع وإنما لأنه لم يكن بمقدوري سوى الكتابة عن البحر، البحر يحتضن الاسكندرية من معظم جوانبها ويحيط بحي بحري من ثلاث جهات، كان هو المكان الذي تطل عليه شرفة بيتنا ويطل السطح على امتداد آفاقه، كنت أسير على شاطئه وأتابع التعامل اليومي معه في صيد السنارة والطراحة والجرافة وعمليات الشحن في الميناء الغربية وركوب البحر نفسه في قوارب صغيرة تعبر المسافة من باب واحد إلى باب رقم ستة أو في لانشات تمضي إلى قرب البوغاز حتى في الظلام كنت أتسمع إلى البحر وإن كنت لا أراه وأتذكر قول رامبو إنه البحر وقد رحل مع الشمس. البحر ليس موضوعاً طارئاً في حياتي إنه الحياة نفسها والموت أيضاً، وعلى الرغم من انقضاء عشرات الأعوام على ابتعادي بصورة عملية عن الإسكندرية فإني أفضل حتى الآن أن تدور أحداث أعمالي في بحري لأني أشعر أن الحي تحت تصرفي أعرف تاريخه وأسواقه وشوارعه ومساجده وبناياته وسلوكيات حياته اليومية، أعرف المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد حتى مسميات الأسماء واللهجة هي وسيلة التعبير عندي.

والبحر عند الشخصيات الأدبية بشكل عام مبعث للتأمل الرومانسي ولقضاء إجازة الصيف.. البحر عند شخصياتي مصدر الرزق، يحصلون على قوت أيامهم بالعمل فيه، والإفادة من تنوع خيراته وتشقيهم أحواله من نوات وعواصف ورياح حتى أنه يختطف البحارة والصيادين أحياناً من فوق بلانساتهم «سفن الصيد الكبيرة» ويغيبهم في أعماقه، ويعطي الموروث الشعبي تأثيراته التي تدين غالباً للخرافة، البحر مرادف للحياة بعامة في الأعمال الإبداعية فهو يتسربل بالسحر والخرافة والأسطورة،أما البحر في أعمالي فهو مرادف للحياة والموت في آن، قد يكون حصيرة «بلغة أهل الإسكندرية» فيتاح ركوبه والحصول على الرزق من أعماقه وقد يعاني النوات والعواصف والرياح فتنعكس معاناته على من يركبونه أو يقفون على شاطئه بحثاً عن الرزق.

وحي بحري بالإسكندرية هو الأرضية لمعظم ماكتبت من إبداعات وقد أردت في رباعية بحري بأجزائها أبو العباس، ياقوت العرش، البوصيري،علي تمراز أن أكتب فصولاً مستقلة تتكامل في تصوير حي بحري الذي أحببته وامتداده الطبيعي إلى المكس أو الرمل، قوام الرباعية هو الحنين إلى الماضي، إلى الزمان الماضي والمكان الماضي، الجو الحافل بالإسطورة والصوفية والرموز والخوارق والتأملات الميتافيزيقية والتطلع والخنوع وطلب المدد... أردت بهذه الرباعية الروائية أن أكتب فصولاً مستقلة أو لوحات، تصور الحياة في حي بحري بالاسكندرية عقب الحرب العالمية الثانية، لاصلة بين الكثير من اللوحات فلا يكاد القارئ يتبين مايربط بينها... هي الوحدة الداخلية سواء على مستوى المكان أو الزمان أو الشخصيات أو الجو العام بحيث تتكامل الفصول أو اللوحات في بناء روائي يهبنا لوحة بانورامية الأبعاد والتفصيلات لهذا الحي الذي عشت فيه طفولتي وصباي وشبابي الباكر ومازلت أحيا فيه رغم البُعد ويحيا فيّ حتى الآن.

الروائي محمد جبريل: قوام «رباعية بحري» هو الحنين الى الماضي بزمانه ومكانه.

مدن الموانئ والرواية العربية

● وعن مدن الموانئ في الرواية العربية يقول الدكتور مدحت الجيار- أستاذ الأدب العربي بجامعة الزقازيق:

- ليست المدن الخاصة بالموانئ مثل كل المدن بل هي مدن عالمية تربط بين المجتمع المحلي والمجتمع الدولي وتتسرب إليها خصائص عالمية وإنسانية تسبق وصولها إلى بقية مدن الدولة ومن هنا كانت لموانئ الاسكندرية ثم دمياط ثم بور سعيد أدوارا غاية في الرفاهية والأهمية في تشكيل الإنسان الذي يعيش فيها والإنسان الذي يتعامل معها بل هي محط أنظار الأجانب والأغراب من ناحية وهي وسيلة الإتصال بالعالم الخارجي وحضاراته ومنجزاته بل تكون في أحيان كثيرة الجسرالذي تدخل معه جيوش الإحتلال في القديم والحديث على السواء.

ومن هنا ينتشر الأجانب في مدن الموانئ وتنتشر لغاتهم وسلوكياتهم مع لغات وسلوكيات أهل المدينة المنفتحة على العالم، وهنا يأتي مكمن التطور والتحديث ومكمن الخطر، فالمياه الدولية لاتقسمها إلا خيوط وهمية تزول في لحظات الحرب والخطر والاعتداء حتى في لحظات التعاون الاقتصادي والعلمي هنا تصبح مدينة الموانئ نموذجاً مصغراً للعالم المحيط والبعيد، وتصبح غاية نظر المواطن في المدن الأخرى التي يتمتع أهلها بالاستقرار الزراعي أو الرعوي مثلاً... إن مدن الموانئ بؤر حضارية وثقافية متعددة الاتجاهات والمستويات وهي أول مراكز الحضارة في العالم وأول مناطق الصراع والحرب في الوقت نفسه، لا تختلف في ذلك مدن الموانئ القديمة أو مدن الموانئ الحديثة فالجغرافيا واحدة رغم التطور التكنولوجي ورغم اختراع وسائل النقل والاتصال الحديثة عبر البر والجو ولكن لايزال البحر وميناء البحور ومدنها علامة فارقة في كل أمة.

يظهر ذلك فيما كتب من السرد القديم في رحلات السندباد وماكتب في كتب الرحلات العربية رغم اختلاط هذه الرحلات والسرديات بخصائص تجارية وسياحية ودينية وروحية واستكشافية إذ تم التصالح والتعارف والخصام من خلالها بل لاتزال رحلات الاكتشاف الأوروبي إلى العالم الجديد «الأمريكيتين واستراليا» وخلق موانئ على المحيطات لتسهيل حركة التجارة والحرب أيضاً لاتزال صالحة لتفسير حركة مدن الموانئ الآن.

وفي الموانئ تحدث عوالم وتخلق عوالم، ليس في سرد الرحلات مثل ابن جبير وابن فضلان وابن بطوطة بل في السرد العربي الحديث مايؤيد تواصل هذا السرد وتواصل دور الميناء في خلق المدن الجديدة وتحديث المدن القديمة وايقاظ الوعي والتعرف على المنجز الحديث..

والرواية العربية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة نموذج لهذه الفعالية فنستطيع أن نجد في رواية «نوة الكرم» لنجوى شعبان «دمياط» وفي رواية «لا أحد ينام» في «الإسكندرية» لإبراهيم عبدالمجيد ورواية «النخيل الملكي» لمحمد عبدالسلام العمري ما يؤيد هذا الزعم.. ففي هذه الروايات وفي غيرها بالطبع تظهر الميناء كمحطة تغيير، وخطر كماتظهر خصائص مميزة للإنسان العائش في مدنها ولاتزال الروايات المشار إليها تحقق لمتلقيها هذه الخصائص من السرد المتأثر بسرد تراثي وبعرض نماذج بشرية مختلفة ومتعددة الجوانب ليست مسطحة ولاتزال تملك لغة خاصة بها تختلف حتى عن لغة هؤلاء الكتاب في أعمالهم الأخرى.

هل العبقرية نوع من الإضطراب العقلي؟

فاروق الجفري

● العبقرية في مختلف تجلياتها الفنية والأدبية والعلمية إنما تصدر عن عقل هو خارج العقول المنتظمة في العاديات عقل مغرم بالكشف وتفكيك اولويات الاشياء والعكوف على الجديد باستشاراته مما يحتم بالضرورة ان يظهر وكأنه خارج التجانس الجبري وهو كذلك بالتأكيد يلاحق صاحبه افعاله الإبداعية الحرة مهما بدت ناشزة ولأجل هذا التسلل الخصوصي في التفاصيل ودقائقها اللامفر منها نرى الانسان العبقري بعامة ينفصل عن سياقه الاجتماعي وحتى عن نفسه ليستحيل كائنا آخر يعمل بنظامه هو ومفاجآته هو وإشاراته هو تلك التي هي في النتيجة غير قابلة لأي تكيف او امتثال تحتمه العلاقات الاجتماعية ان العبقرية هي مجرد ارتفاع في درجة الذكاء الانساني وانصراف هذا الذكاء في وجهة معنية والمسألة اعقد من ذلك ولاشك أن العبقرية مركب سايكولوجي خصوصي لايحقق ابعاده المتجاورة إلا بمدى قدرته على الابتكار والابتكار لاينتهي إلا باسئلة ابتكارية اخرى وهكذا فمملكة الابتكار تفترض هنا صراعا دائما ومناهضات قيمية لاتريح صاحبها إذن فكرة الصراع هي علة العبقرية ولأنها كذلك يبدو العبقري وكأنه الفصامي أحيانا والعبقرية في المقابل ليست اضطرابا عقليا من النوع المرضي لأنها ببساطة هي الانتظام العميق بعينه الانتظام الغالي بحساسيته في قلب جدل قوانين الاشياء وترابطها ببعضها ولايمكن لحال عقلية فصامية بالمعنى المرضي هنا ان تنتج بتفوق اذ النتاج الاستثنائي هو أعلى حالة رقي منطقي وحسابي ورياضي للفعل بين اول معاينة وآخرها.

خلاصة القول إن ضآلة القدرة على إلتأقلم الاجتماعي والانصراف الهادئ او العصبي لمتابعة الحقائق وتسريع انبثاقها لايعني بالضرورة اضطرابا عقليا حتى وإن اتصلت هذاءات العقل الاستثنائي او ذاك بإشاراتها.

قصة قصيرة

وصارت دوحة للغراب

صدام نجيب الشيباني

يتغلغل في أحداقي كليل يحمل أشلاءه المتبعثرة ، أحاول إيقاف الزحف.. ثمة من يرصدني إن تأملت، لم تكن أعصابي لتهدأ من دهشة اللقاء وغزارة الإعجاب.. دنوت قاب صخرتين من أحجاره، إنه بكل شهقة «باب اليمن، وهو يثب مرسلاً جناحيه في الشرق والغرب ، يحمل رائحة البن أنشودة السبئيين - سيف الصناعات إلى زمن تتوسد أوجاعه هذيان البشر للتيه والعقم.

ممشوقة القد في رأسها يعربد سِفْرُ النهايات ، وهي تمسح عن عينيها أرق التفكير العصَيب.. منذ رأت تلال جسدها تتكور أكثر .. فأكثر قبضت على مفتاح فتنتها وخرجت تتنفس نشوة المارة في لحظة النظرة الخارقة.

في هذا الضحى فقط شعرت في قرارة نفسها أنها تشبه « باب اليمن» ذلك المدخل الذهبي لبوتقة تتعرى في القلوب رويداً«صنعاء القديمة» زمت شفيتها ورصدت في جوفها حواراً ظهر معناه من بريق عينيها اللامعتين كاللؤلؤ المكنون : الحرِية والعدالة هما قراراي الأخيران مازلت محشوة بالسِّمتين ،لا توجد امرأة في العالم تعيش حياتها مثلي، مثقفة بقدر أصالة صنعاء وتاريخها المعرفي..

■ ■ ■

كنت أعرف ذلك الطفح المرير وهو ينداح من عرق أقربائها قسوة منها كلما تجرأ أحد في الاقتراب منها انتشت سموم الغرور كي تلتذ من تنهيدة الآخرين.

شرعت في ولوج باب اليمن، تقلب بصرها في ناطحات السحاب، وتسحب وراءها خيبة لاتطاق ، صنعاء في صدرها تتمدد كل وجوه الناس، سرعة الصبيان خلف الريال وركض الشيوخ إلى الجامع الكبير ابتهالاً، وضجة الباعة ، أما برتقالية الوجنتين على رسلها تطرد سمة الكادحين وتزرع حنظل النهايات إلى اللازمان- إلى اللامكان.

■ ■ ■

عسى أن ترد إليّ بعض احتياجاتي من الكاكاو والزنجبيل حين ألج في أزقتها الضيقة التي تتسع لمرور شخصين متحاذيين جانبياً وأنا أتجول فيها أعطتني عبرة القدر اللامرئية في الملامح الشبقة إذ نذرت جسدها لتعليمي الصبر والثبات.

وأنثاي في وجهها البابلي ، تحدجني باشتهاء الزرع للمطر وكيفما بدأت التجول في شوارعها ومنعطفاتها ، سدت آفاق الرؤية وتركتني صريعاً لغطرسة لا تحد ، لزيف بنتوء المساءات المدلهمة.

عزمت التعرف عليها عن قرب، تلك التي شاهدتها في التلفاز تجرّ أذيائل إفصاحها كلمة - كلمة بارتعاشة المشعوذين تكسرت عرى الثقافة فيها، وصارت دوحة للغراب.